بلاغة الانزياحات الأسلوبية في تفسير دلالات النص القرآني
رؤية بلاغية في آيات التربية الأسرية

حميد حماموشي

المدرسة العليا للتربية والتكوين- جامعة ابن طفيل، القنيطرة-(المغرب)

The Stylistic Shifts in the Interpretation of the Meanings of the Qur'anic Text: A Stylistic View of the Verses on Family Education

HAMID HMAMOUCHI

Higher School of Education and Training, Ibn Tufail University, Kenitra (Morocco0, hamid771@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 10/ 2025/08 تاريخ القبول:20 / 09/ 2025 تاريخ النشر: 01 / 12 / 2025

الملخص:

تروم هذه الدراسة تحليل الانزياحات الأسلوبية في القرآن الكريم والتدقيق في آثارها الدلالية من خلال التركيز على آيات التربية الأسرية وما تحمله من إنسانية سامية، ومثل عليا لو تدبرها الإنسان، لنجح في نشر الخير والسلم، والترفع عن كل أنانية، واستبداد، وظلم، وعنف، وإقصاء، ومقابل ذلك سيميل إلى العدل، والحرية، والتسامح، والتضامن، وبذلك تسمو روحه عن سائر الكائنات، وترتقي إنسانيته إلى أعلى المدارج وأرقى المراتب.

ولا جرم من الإشارة في هذا السياق أن القيم الأسرية التي ستحللها هذه المقالة، لا تنفصل عن منظومة القيم الإنسانية التي تتفرق في آيات الذكر الحكيم، إلا أن التركيز على الأسرة يعود - في اعتقادي- لكونها هي الأساس الذي تقوم عليه كل المجتمعات، فهي الحاضن الطبيعي الذي يتكفل بتأهيل الناشئة ورعايتها، وفي ظله تزهر كل قيم المجتمع.

كما يهدف هذا المقال إلى رصد العديد من القيم الأسرية في القرآن الكريم، وتوضيح دلالاتها بمنظار الانزياح الدلالي(الاستعارة/الكناية/الإطناب/ الإيجاز/ التكرار...)، والانزياح التركيبي(الحذف/ التقديم والتأخير...)، والانزياح الإيقاعي (إيقاع الحروف والجمل/ الجناس/ الفواصل/...)، وذلك من أجل تأكيد فكرة مفادها أن هذا العدول والانزياح الأسلوبي ليس خروجاً أو خرقاً مجانيا لنظام اللغة العربية، أو انتهاكا عاديا لمعيار هذه اللغة، وإنما هو نظام لغوي في أعلى درجاته الإبداعية والبلاغية .

وأهم ما تم الوصول إليه، هو أن تفسير بلاغة القرآن وإعجازه، تنطلق من الأسلوب وتعود إليه، فكل جمل القرآن تتأسس على أساليب لغوية فريدة، وبتغيير مواقع تلك الجمل تضيع الدلالة، أو يصير المعنى غفلا مغسولا يدل على غير ما وضعت له الآيات.

كلمات مفتاحية: البلاغة ،الانزياح الأسلوبي،تفسير النص القرآن، التربية الأسرية.

Abstract:

This study examines Qur'anic stylistic shifts and their semantic effects, focusing on family-education verses that embody exalted human values promoting justice, tolerance, and solidarity while rejecting tyranny and exclusion. Family values, integral to the Qur'an's ethical system, are prioritised as society's foundation and primary nurturer of youth.

Analysing semantic (metaphor, metonymy, hyperbole, concision, repetition), structural (deletion, advancement, postponement), and rhythmic (cadence, alliteration, verse endings) shifts, it demonstrates that these deliberate deviations represent the apex of linguistic creativity and eloquence, not normative violations. The core finding: Qur'anic eloquence and inimitability reside in its unique style—each sentence irreplaceably positioned; any alteration distorts the intended meaning.

The most important conclusion reached is that the interpretation of the eloquence and miraculous nature of the Qur'an stems from and returns to its style; all sentences in the Qur'an are based on unique linguistic styles. Indeed, changing the positions of those sentences would cause the loss or vagueness of meaning, a fact that would result in having meanings different from the one(s) conveyed in the verses.

Keywords: rhetoric, stylistic shift, Qur'anic exegesis, family education.

مقدمة:

اشتمل القرآن الكريم على قيم مختلفة في التربية الأسرية، أسهمت في رسم معالم حياة سعيدة وآمنة مستقرة، وقد كانت تلك القيم سببا مباشرا في خلود القرآن، وصلاحيته لكل زمان ومكان. ولا مناص من التأكيد أن المدخل الأساس لفهم هذه القيم والتشبع بها هو أسلوب القرآن ولغته البديعة. ولأجل ذلك فإن تفسيره وفهمه يمر بمستويات متنوعة؛ من أبرزها المستوى اللغوي، والدلالي، والمعجمي، والتركيبي، والصوتي.

ونظرا لتشعب منطلقات هذا الموضوع وتعددها، فقد آثرت تسليط الضوء عليه من زاوية لغة القرآن، وبلاغته في التعبير، من خلال التركيز على الانزياحات الأسلوبية في النص القرآني، وأثرها في تعميق فهم دلالات آيات التربية الأسرية المرتبطة بالعلاقات بين الآباء والأبناء، أو بين الإخوة فيما بينهم.

ولا جرم من الإشارة في هذا السياق أن القيم الأسرية التي ستناقشها هذه المداخلة، لا تنفصل عن منظومة القيم الإنسانية التي تتفرق في آيات الذكر الحكيم، إلا أن التركيز على الأسرة يعود -في اعتقادي- لكونها هي الأساس الذي تقوم عليه كل المجتمعات، فهي الحاضن الطبيعي الذي يتكفل بتأهيل الناشئة ورعايتها، وفي ظله تزهر كل قيم المجتمع.

المبحث الأول

الانزياح الدلالي: فائض الدلالة باعتباره آلية لتفسير آيات التربية الأسرية في القرآن الكريم

يعد مفهوم الانزياح مفهوما نقديا غربيا تعاور على دراسته العديد من الدارسين، أبرزهم الشكلانيون الروس، الذين مثلوا الصحوة الأدبية الغربية التي تهتم بقيمة الشكل باعتباره مصدرا لاختلاف النص الأدبي عن غيره من النصوص، ومن ثمة نادوا بالبعد عن المعيار "والانحراف عن الاستعمال اللغوي العام" (الشكلانية الروسية. فيكتور إيرليخ. ص103) لإبراز استقلالية التعبير الأدبي عن غيره من أنواع التعبير الأخرى.

وقد ذهب موكاروفسكي أكثر من هذا عندما جعل من الانزياح عن اللغة العادية سر الشعرية وذلك حين قال:" إن انتهاكَ قانون اللغة المعيارية؛ الانتهاك المنظم، هو الذي يجعل الاستخدام الشعري ممكنا، وبدون هذا الإمكان لن يوجد الشعر، وكلما كان قانون اللغة المعيارية أكثر ثباتا في لغة ما، كان انتهاكه أكثر تنوعا ومن ثمة كثرت إمكانات الشعر في تلك اللغة." (اللغة المعيارية واللغة الشعرية، موكاروفسكي. ص 42).

ويبقى كوهن - في اعتقادي- من أبرز الدارسين الغربيين الذين أثاروا مفهوم الانزياح في الدراسات النقدية البنيوية، إذ بنى على أساسه صرح الشعرية في كتابه " بنية اللغة الشعرية"، وقد وُجد هذا المفهوم متناثرا في صفحات هذا الكتاب إلى جانب مفاهيم أخرى، ومنها " الانحراف"(بنية اللغة الشعرية، جون كوهن. ص 105 - 128- 159- 190 - 213- 215.)، و "الخرق"، (بنية اللغة الشعرية، جون كوهن. ص: 105 - 128- 159- 190 - 213- 215.) و "الشذوذ"(بنية اللغة الشعرية، جون كوهن. ص: 105 - 128- 159- 190 - 213- 215.)، وكأنه يتقاسم الأدوار معها في الدلالة على نفس المعنى؛ خُروج اللغة الشعرية عن المعيار.

ويرى كوهن أن تعريف " الانزياح هو التعريف نفسه الذي يعطيه (شارل برونو) للواقعية الأسلوبية، آخذا في ذلك عن قول فاليري...فالأسلوب هو كل ما ليس شائعا ولا عاديا ولا مطابقا للمعيار العام المألوف، ويبقى مع ذلك أن الأسلوب كما مورس في الأدب، يحمل قيمة جمالية، إنه انزياح بالنسبة إلى معيار، أي أنه خطأ كما يقول "برونو" أيضا، خطأ مقصود"(بنية اللغة الشعرية، جون كوهن ، ص 15.)؛ لأن الغاية من بعد ذلك هي تصحيحه وقبوله لمبدأ التأويل ولن يكون الانزياح شعريا حسب كوهن، إلا " لأنه يعودُ في لحظة ثانية لكي يخضع لعملية تصحيح، وليعيد للكلام انسجامه ووظيفته التواصلية".(بنية اللغة الشعرية.. مقدمة المترجمين. ص 6).

وعند الحديث عن انزياح اللغة الأدبية، فإن ذلك يفرض أن نقسمه إلى ثلاثة مستويات؛ وهي الانزياح في المستوى الدلالي، والانزياح في المستوى التركيبي، ثم الانزياح في المستوى الإيقاعي.

ويقصد بالانزياح الدلالي خروج اللغة الفنية عن التقريرية والنمطية في الإبلاغ؛ أي إن القارئ لا يستطيع فهم المعنى دون تأويل، او إعمال فكر، أو إجهاد خاطر، فاللغة الفنية المتكئة على الانزياح تخبر وتُبلِّغ، بقدر ما تمتع وتبدع. ومن أشكال الانزياح الدلالي المعتمدة في هذا البحث، نجد الاستعارة، والتشبيه، والكناية، والتمثيل.

المطلب الأول: الاستعارة:

يعتمد القرآن الكريم في كثير من آياته على الاستعارة، لما لها من قيمة إضافية في توضيح المعنى وتصويره للمتلقي. وتعتبر الاستعارة في الدراسات الأسلوبية الحديثة ملمحا لغويا بارزا يتجلى فيه العدول بشكل قوي، وذلك لانتمائها إلى حقل المجاز، الذي يعتبره أرباب البلاغة " أبلغ من الحقيقة، [لـ]أنه يُلطف الكلام ويكسبه حلاوةً ويكسُوهُ رشاقة." (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني. ص 8).

واعتماد الاستعارة في اللغة العربية ليس من باب الترف اللغوي، وإنما يكون في الغالب لغاية دلالية إضافية؛ إما لأجل الشرح أو التوضيح، أو التأكيد، أو المبالغة، أو الإيجاز، أو التجميل، فهي" أحد أعمدة الكلام والمعوَّل في التوسُّع والتصرف، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر." (الوساطة. بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، ص 428).

ومن أفصح استعارات القرآن الكريم التي تعظم قيمة التودد، والعطف اتجاه الوالدين، قوله تعالى على سبيل الاستعارة المكنية:" واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا."(سورة الإسراء. آية 24).

إن اعتماد القرآن الكريم على هذا الانزياح الدلالي، من خلال استغلال الطاقة التعبيرية للاستعارة المكنية في عبارة "جناح الذل"، منح الآية شحنة دلالية إضافية، لم تكن ممكنة في التعبير العادي والمباشر لموقف التودد والخضوع للوالدين.

فَحَذْفُ المشبه به "الطَّائر"وترك لفظ "الجناح" قرينة تدلّ عليه، يعزز لدى المتلقي تأويل العبارة من جهة الاستعارة المكنية، ولكن ما هي الإضافة التي قدمتها هذه الاستعارة لتفسير قيمة بر الوالدين؟

إن تمثل دلالة الآية، وتخيل موقف المشهد الاستعاري على صورته الحقيقية، والمتمثل في بسط الطائر لجناحه على الأرض لحظة وهنه، والتصاقه بالتراب، يبين الصورة التي ينبغي أن يكون فيها الابن لحظة حواره مع والديه، حيث ينبغي أن

يخفض من وقفته وصوته، ويطأطئ رأسه إمعانا في التودد والتذلل والخضوع، وهذا التصاغر والإذعان في مجلس الوالدين ليس ذلا في ذاته، بقدر ما هو تعبير عن الحب والعطف والحنان، فالابن البار يلين جانبه، ويرخي كتفيه ويديه كفعل الطائر لحظة تعبه، أو حنوه على أبنائه. فحكمة الاستعارة هنا إذن هي " جعل ما ليس بمرئي مرئيا لأجل حسن البيان" (الإتقان في علو م القرآن.. السيوطي. ج 4. ص 1544). والاستعارة في هذه الآية أبانت بكثير من التصوير، فجعلت الابن البار يعقل من الآية " وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام". (في ظلال القرآن. سيد قطب. المجلد الرابع، 2222/2221).

المطلب الثاني: التشبيه:

يبرز التشبيه في بعض آيات القرآن الكريم، باعتباره انزياحا دلاليا يسهم في إيضاح قيم أسرية مهمة، وإخراجها من الغموض إلى الوضوح بأسلوب موجز. ومن نماذج ذلك، استحضاره تعالى للتشبيه البليغ موضحا قيمة الرحمة بين الأزواج، وذلك في قوله:" هن لباس لكم وأنتم لباس لهن" (سورة البقرة، آية 186 وما بعدها)، إذ إن تبني التشبيه البليغ في هذه الآية جعلها تحمل فيضا من المعاني، لا يقدمه الخطاب المباشر والصريح. في حالة اعتماد الخطاب المباشر، كقولنا مثلا: "هن زوجات لكم وأنتم أزواج لهن". فما هي إذن الإضافات الدلالية التي قدمها التشبيه في تفسير هذه الآية لقيمة الحب الواجب توفرها بين الأزواج؟

إن العدول الدلالي بصيغة التشبيه في لفظ "لباس" في الآية الكريمة، إشارة بلاغية بديعة إلى قيم الرحمة والمودة والحب، التي تقوم عليها مؤسسة الزواج. واستحضار اللباس في تشبيه العلاقة بين الزوجين، نابع من حرص المولى عز وجل على ربط المشبه (هن/ أنتم) بالمشبه به (اللباس) وملازمته له، نظرا لتداخل وظائفهما وتشابهها، وذلك لمزيد من الإيضاح في التصور الذهني للمدلول. ومن تلك الوظائف التي يتقاسمها طرفا التشبيه (الزوجان/اللباس)، الستر والحماية؛ فكلاهما ستر لعورة صاحبه، واسراره، وعقد نقصه، ومكامن ضعفه، وحماية له في الآن نفسه، وتحصين له من الفاحشة حتى لا تنكشف عورته على غيره، فهي إذن حماية رمزية تعطي للزوجين الدفء، والراحة النفسية، والطمأنينة الروحية، التي تقيهما مما يكدر صفاء النفس من حرام ومجون وتعهر. ومما يزيد التشبيه في هذه الآية عمقا في الحض على قيمة الحب بين الزوجين، هو تخيل القيمة المضافة التي يعطيها اللباس للإنسان عند التصاقه به، تلك القيمة في ميثاق الزواج أظهر وأبين، إذ إن هذا الالتصاق يكمل نقصا في الإنسان ويضفي عليه جمالا، كما يدل على التطابق مع الجسم، وهو في الزواج تطابق مادي ومعنوي، يجعل الزوجين كالبنيان يشد بعضه بعضا، فيكون فرح أحدهما هو فرح الآخر، وحزن أحدهما هو حزن الآخر، ويكرس هذا التطابق تماثل وتشابه في الدين، والخلق، والأفكار، والمواقف، والأهداف، فيصيران بهذا التماهي لباسا لبعضهما البعض.

بناءً على ما تقدم تحليله، يتضح أن اعتماد تحليل التشبيه البليغ في تفسير معاني الآية، منح قيم الحب، والستر، والألفة، والجمال، مبالغة وإغراقا في ادعاء أن المشبه (هن وأنتم) هو المشبه به (لباس) نفسه، لا يفصل بينهما شيء، كما أنه منح تلك القيم بهاءً ورونقا أسلوبيا، لم يكن ممكنا في النظم المباشر، أو الأسلوب المعياري الخالي من العدول.

المطلب الثالث: التمثيل:

وهو من الانزياح الدلالي أيضا، ومن أبواب علم البيان، ينزاح النص بواسطته عن الخطاب الصريح المباشر، ويميل إلى خطاب مراوغ يعتمد المثل مطية لإيصال المعنى المراد، ومثال ذلك تقول للرجل يعمل في غير معمل:" أراك تنفُخُ في غير فحم، وتخُطُّ على الماءِ، فتجعله في ظاهر الأمر كأنه يَنفُخُ ويخُطُ، والمعنى على أنك في فعلك كمن يفعل ذلك". (دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. ص69). ويسميه الباقلاني " بالمماثلة" وهو عنده أن " يقصد الإشارة إلى معنى فيضع ألفاظا تدل عليه، وذلك المعنى بألفاظه مثالٌ للمعنى الذي قصد الإشارة إليه." (إعجاز القرآن. الباقلاني. ص 62).

ومن آيات الذكر الحكيم التي تعتمد التمثيل مطية للحث على بعض القيم الأسرية، قوله تعالى في سورة لقمان: " يَا بُنَيَّ إنها إن تك مثقال حبة من خرذل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير" (سورة لقمان، آية 15).

تجسد رسالة لقمان لابنه في هذه الآية قيمة أسرية ينبغي ان يتبناها الآباء والأمهات ويحرصوا عليها؛ وهي قيمة النصح والإرشاد. وما ميز هذه القيمة في الآية وأعطاها رونقا وبهاءً، وجعل لها أثرا في نفس متلقيها، هو اعتمادها التمثيل بنية بلاغية في التواصل. فلقمان في الآية الكريمة لم يتبنَّ الأسلوب المباشر في نصح الابن/الطفل، بل عدل عن ذلك إلى ضرب المثل في توضيح قدرة الله وإحاطته بكل شيء علما. وقد ناسب هذا الأسلوب فطرة الأطفال في تلقي القيم والمفاهيم، فضرب الأمثال من الوسائل التربوية التي تحدث في نفوس الأطفال أثرا بليغا لأنهم يستحسنونها ويتفاعلون معها، مثلما يتفاعل الكبار مع دلالاتها العميقة ومراميها البعيدة.

ولا تقع المزية في هذه الآية في معنى النصيحة التي قدمها لقمان لابنه، والمتمثلة في تذكيره بقدرة الله واطلاعه على الغيب، بل إنها " تقع في طريق إثبات المعنى"، (دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. ص 71) ذلك أن تصوير المَشاهد في التمثيل، منح الآية قدرة على النفاذ إلى وجدان الطفل، ومنحها دلالات إضافية نفذت كذلك إلى عمق وجدان الراشد وعقله، فَضَرْبُ المثل بإخفاء شيء في غاية الصغر (حبة من خرذل)، وفي مكان بعيد (في السماوات)، ومظلم (في الأرض)، ومن وراء حجاب: (في صخرة)، فتنكير لفظ صخرة، جعلها غير معروفة، فهي عامة قد تكون في صخرة من صخور الأرض، أو في صخرة سابحة في الفضاء، أو في صخرة توجد في أعماق البحار، فهي نكرة غير مقيدة بمكان.) هو مبالغة في تعميق دلالة علمه تعالى وقدرته، لا يمكن تحققها في ذهن المتلقي إلا باعتماد أسلوب التمثيل.

وفي السياق نفسه، يمكن تأويل التمثيل الموجود في قول لقمان لابنه وهو ينصحه بالتأدب في الكلام: " واغْضُضْ مِنْ صوتِكَ إنَّ أنكرَ الأَصواتِ لَصوْتُ الحَمِيرِ." (سورة لقمان. آية 18).

لا مناص أن اعتماد هذه الآية ضربَ المثل بتشبيه الصوت المرتفع بصوت الحمار، يحمل في طياته لذاذة في رسم مشهد فني جميل، بقدر ما سيستمتع به الأطفال، فإنهم سيفهمون دلالته التي ترمي إلى تجنب رفع الصوت بشكل فاضح، والتي تعني ضمنيا تجنب التشبه بأقبح الأصوات وأنكرها. وبموازاة ذلك يمكن أن يُستَنْبَطَ من هذا المشهد، نصيحة مغلفة بحكمة، مفادها أن قوة الخطاب لا تتأتى بالحدة والغلظة، ورفع الصوت بالزعاق، بل إنها تنبع من عكس ذلك تماما؛ من الأدب والتظرف واللين، مما يصبغ شخصية المخاطِب بالوقار والثقة بالنفس، ويدل على ذوقه النقي وطبعه السليم.

المطلب الرابع: الكناية:

الكناية هي " أن تتكلم بشيء وتريد غيره" (المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر. ابن الأثير. الطبعة الثانية.. ج3. ص. 52- 53)، أي أن تترك " التصريح بذكر الشيء، إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: فلان طويل النجاد، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه، وهو طول القامة." (مفتاح العلوم. السكاكي ص 512)، ويرى عبد القاهر الجرجاني أن الكناية هي "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم: " هو طويل النجاد" يريدون طول القامة، و " كثير رماد القدر" يعنون كثير القرى، وفي المرأة " نؤوم الضحى" والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا في هذا كله، كما ترى، معنىً، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنىً آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد؟ وإذا كثر القرى كثر رماد القدر؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها، ردف ذلك أن تنام إلى الضحى؟" (دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. ص 66).

ومن جميل كنايات القرآن، التي تحمل في طياتها قيما أسرية بأسلوب بلاغي فريد، قوله تعالى على لسان لقمان مخاطبا ابنه:" ولاَ تُصاعِرْ خَدَّكَ للنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرحاً." (سورة لقمان. آية 17).

لا جرم في القول، بأن اعتماد الكناية في تفسير هذه الآية: "لا تصاعر خدك للناس، ولا تمش في الأرض مرحا"، له مأخذ من القلب، وتأثير في النفس لا يضاهيه مقابله المباشر الخالي من الانزياح في قولنا: " لا تتكبر على الناس، ولا تعجب بنفسك". والعلة في ذلك، أن انزياح الأسلوب القرآني في هذه الآية عن اللغة التقريرية في تقديم قيمة (التواضع) إلى أسلوب الكناية، سيجعل النصيحة أكثر نفاذا إلى عقل الابن وقلبه، وذلك لأن الكناية ستسهم في إثبات معنى التواضع بالشاهد والدليل، فمصاعرة الخد، تعني بالضرورة الإعراض عن الناس والتعالي عليهم، وكذلك الأمر في قوله تعالى " لا تمش في الأرض مرحا" التي يتبعها بالضرورة الزهو والعجب والتباهي بالذات.

ثبت لدينا إذن أن تفسير الكناية في هذه الآية، يبين أن مزيتها تُستلهم انطلاقا من تصويرها لواقع حال المتكبر، وذكر خصائصه السلوكية على أرض الواقع، حتى يتخيلها الابن ويتذوق مراميها ودلالاتها.

ومن الخصائص السلوكية المعروفة عند المتكبر، تعاظمه على الناس واستنكافه النظر إليهم، وكذا عدم التبسم في وجوههم، وإذا كان الإعراض عنهم بهذا الشكل، كانت مصاعرة الخد لهم هي النتيجة لامحالة. مما يعني أن صاحب هذا السلوك إنسان متكبر يتعالى عن الناس ويحتقرهم. والتأويل نفسه يصدق على قوله: "لا تمش في الأرض مرحا". فإنه لما كثر الإعجاب بالنفس كثر التبختر والخيلاء، وإذا كثر التبختر والخيلاء كثر المشي في الأرض مرحا لا محالة، مما يفيد أن صاحب هذا السلوك إنسان متعجرف لا يتوانى عن التباهي بنفسه أمام الناس.

إن ما يجعل قيمة النصح بحسن المعاملة في الحوار والمشي، التي يحرص لقمان على زرعها فى ابنه أكثر تأثيرا في النفس، وأشد وقعا عليها، هو أن الكناية عن التكبر بمصاعرة الخد والزهو بالنفس، كانت بسبب استحضار الشاهد والدليل، وما هو عَلَمٌ على وجودهما، وذلك حتما يكون أبلغ من إثباتهما بنفسهما.

ومن آيات الذكر الحكيم التي اتخذت الكناية مسلكا لتثبيت قيمة الرحمة والحب، ما تصوره هذه الآية بين موسى وأخته في قوله تعالى: " وقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عنْ جُنُبٍ وهم لا يَشْعُرونَ." (سورة القصص. آية 10)

لتفسير معاني هذه الآية تقفز الكناية سافرة في قوله تعالى " فبصرت به عن جنب "، لتعطي للمعنى لطفا وخِلاَبَةً، يزيد من تعميق مشهد اقتفاء أثر موسى من لدن أخته بعد رميه في اليم. فالكناية ستحمل المتلقي على أن يعقل من الآية معنى أولا، هو تتبع الأخت الكبرى لأخيها الرضيع مع تفادي انكشاف أمرها، وهذا المعنى الأول سيقود المتلقي حتما إلى معنى ثانٍ يسمى عند البلاغيين معنى المعنى؛ وهو الذي يؤول إلى رحمة الأخت وحبها لأخيها، التي تجلت في لهفتها عليه، وحذرها الشديد من إظهار نفسها لحظة تتبع خطواته، وحرصها على معرفة مصيره ومكان استقراره، قصد إرجاعه لأمها تحقيقا لوعد الله "إِنَّا رادُّوهُ إِليكِ ". (سورة القصص. آية 6).

إن الحرص والحذر الشديدين اللذين ارتبطا بلفظ "جنب" في الآية، ينطبق في الغالب على استعمالات مادة فِعْلِ "ج ن ب" في القرآن برمته، فكلما ورد هذا الفعل في الذكر الحكيم، إلا وارتبط بالحرص الشديد على الابتعاد والتفادي. ومثال ذلك قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا إنما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنصابُ والأَزْلامُ رِجسٌ من عمَلِ الشيطانِ فاجْتنبوهُ لعلكم تُفلِحونَ". (سورة: المائدة، آية: 92) فالإتيان بفعل الأمر في هذه الآية (اجتنبوه) فيه قوة أكثر من لفظ التحريم، ذلك أن التحريم قد يعني الاقتراب منه دون التعاطي له، بينما لفظ الاجتناب يفيد مع الابتعاد عن شربه، الابتعاد كذلك عن مكان وجوده (مجلس فيه خمر، أو منزل يباع فيه).

ومما قد يعضد تأويل قوله تعالى " فبصرت به عن جنب" بالكناية الدالة على حب الأخت ورحمتها، اللتين تجسدتا في الحرص على عدم تضييع أثر أخيها، هو تلك الإلماعة الموجزة لسياق القصة، فحرصها الشديد ولهفتها على موسى تمظهر

لغويا في الآية، من خلال حذف جمل تبين ماذا حدث بعد أمر الأُمِّ الأُختَ بتتبع موسى عقب رميه في اليم. إذ مباشرة نجد: "فبصرت به عن جنب"، دون هدر للوقت، فانعدام الحاجز اللغوي إذن بين الأمر: "قُصِّيهِ"، وتنفيذ الأمر: "فبَصُرَتْ بِهِ عنْ جُنُبٍ"، يدل على انعدام الفاصل والحيز الزمني بين الكلام والفعل، أو قل بين الأمر وتنفيذه، كما يدل ضمنيا على تناسب اللفظ والموقف، مما يجعل القارئ يدرك بداهةً، أن وراء اقتفاء الأخت لأثر أخيها حب أخوي ورحمة تماهى فيهما اللفظ بالموقف، الشيء الذي جعل الكناية في الآية آكد لأنها جاءت بالشاهد والدليل.

من خلال ما تقدم تفسيره وتحليله في أسلوب الكناية، يبدو جليا أن اللغة القرآنية تنأى عن الأسلوب المباشر والتقريري في تقديم المعاني، وتوثر الأسلوب البياني في طرح قيم النصيحة والحب والرحمة وغيرها من القيم، التي يكون منبعها الأسرة وبيئتها المجتمع ككل، لأن هذا الأسلوب يكون له وقع في النفس والعقل على السواء، لأنه يسعى إلى تحقيق غايتين متوازيتين؛ هما الإبلاغ والإمتاع.

المبحث الثاني

الانزياح التركيبي؛ "دور المباني في توجيه تفسير آيات القيم الأسرية في القرآن الكريم"

يقصد بالانزياح التركيبي خروج اللغة عن المعيار من جهة التركيب، أي من جهة تأليف بنياتها، فإذا كانت اللغة العلمية تسعى إلى احترام النظام التركيبي وقوانين النحو المعياري، فإن اللغة الفنية والأدبية تهدف إلى العدول عن هذه القوانين، ولكن ليس لهدم المعنى، وإنما من أجل إثباته بطريقة أخرى، ومن أجل إعطائه شعرية تخلق فضاءً جديدًا له يوسِّع آفاقه ويعمق أبعاده.

ويأخذ الانزياح التركيبي في القرآن الكريم في هذا البحث نصيبا وافرا من هذا التعريف، وهو- في اعتقادي- خرق لغة القرآن لقواعد اللغة المعيارية التي تبناها النحاة، وذلك لغاية جمالية لا تنفصل عن الوظيفة التواصلية ولا تحيد عنها، بل إنها تعززها وتعطيها فضاءً دلاليا وإبداعيا ربانيا لتحلق فيه، ومنبعا لغويا لا ينضب معينه لتنهل منه. وقد اخترت في هذا البحث بعض أشكال العدول التركيبي التي رفدت قيما أسرية ومجتمعية، وأَضَاءَتْهَا بِعبارات لطيفة وأساليب رشيقة.

المطلب الأول: الحذف:

"إن الحذف [هو]غيابٌ لعنصر داخل الجملة" (بنية اللغة الشعرية. جان كوهن. ص.149)، وهو عكس الذكر، ويعتبر بابا من أبواب علم المعاني، يظهر فيه سرُّ اللغة العربية ودقة أساليبها، وقد اعتمده القرآن الكريم في كثير من آياته باعتباره مظهراً من مظاهر الإعجاز اللغوي. ويرى عبد القاهر الجرجاني أنه " بابٌ دقيقُ المسلكِ، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسحر، فإنك ترى به تَرْكَ الذِّكر، أفْصَح من الذكر، والصَّمتَ عن الإفادةِ أزيد للإفادة، وتَجدُكَ أنطق ما تكون إذا لمْ تَنطق، وأتَمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ" (دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. ص: 146)

من خلال ما تقدم يتضح أن الحذف عملية لسانية ودلالية وتركيبية في الآن نفسه، إذ إن منشئ الكلام يعمد إلى مقومات لفظية في كلامه فيحذفها لغاية دلالية أو جمالية، تجعل النفس تطمئن إلى الإضمار وتتفادى الإظهار.

ومن نماذج الحذف التي تعبر عن قيم أسرية خاصة في القرآن الكريم، نجد قوله تعالى: "ليسَ على الأعْمى حَرَجٌ ولاَ على الأَعْرجِ حرَجٌ ولا على المَريضِ حرَجٌ ولا على أنْفُسِكُمُ أنْ تاكُلوا من بيوتكمُ أو بيوت آبائكُمُ أو بيوتِ أُمَّهاتكمُ أو بيوتِ إِخوانِكُمُ أو بيوتِ أَخواتِكمُ أو بيوتِ أَعمامِكُمُ أَو بيوتِ عماتِكُمُ أو بيوتِ أَخْوالِكمُ أو بيوتِ خالاتِكُمُ أو ما مَلَكتم مفاتِحهُ أو صديقِكُمْ ليسَ عليكمْ جُناحٌ أن تاكلوا جميعا أو أَشتاتاً..." (سورة النور. آية 59).

إن القراءة العادية لهذه الآية، تبين أن الله سبحانه وتعالى يرفع الحرج عن مجموعة من العادات التي كان المسلمون يستنكفون عن القيام بها (الأكل مع بعض أصحاب العاهات كالعُمْيِ، والعُرْجِ، والبُرْصِ وغيرهم من أصحاب الأمراض). والشاهد عندي في هذه الآية، هو ترخيصه سبحانه وتعالى للمؤمنين بالأكل في بيوتهم، وبيوت آبائهم وأمهاتهم، وإخوانهم وأخواتهم، وأعمامهم وعماتهم. فالقراءة المتأنية للآية، تجعلنا نتساءل عن السر في حذفه عز وجل "بيوت الأبناء"، لأنه من باب الترتيب كان من الأولى ذكر لفظ " أو بيوت أبنائكم". فلماذا عدل القرآن الكريم هنا عن التصريح، وفضل الحذف والتلميح؟

غير خاف أن حذف عبارة "بيوت أبنائكم" أفصح من ذكرها في هذه الآية، فسرده سبحانه وتعالى واستقراؤه لكل أفراد العائلة في سياق الترخيص لهم، ورفع الحرج عنهم في الأكل في بيوت بعضهم البعض، دون ذكر للأبناء، سيجعل هذه الفئة من الأسرة تتساءل عن السر في استثنائها، وعن مرامي الحق سبحانه من هذا الحذف.

إن تفسير دلالات عدم ذكر عبارة " بيوت الأبناء"، جعلها تتداخل بشكل خفي مع بيوت الآباء وبيوت الأمهات، ذلك أن لفظة " بيوتكم"، موجهة للأبناء لجعل بيوتهم بيوتا لآبائهم دون عنت أو تكلف، فهي تندمج إذن وتتماهى بشكل ضمني مع العبارة المحذوفة "بيوت أبنائكم"، التي غُيِّبَتْ من الجملة تفاديا للتكرار، وتكريسا لفكرة مفادها، أن بيوتكم؛ هي بيوت الأبناء والوالدين معا، لأن هذا ما تفرضه علاقة الأبناء بالآباء والأمهات، وعلى هذا التصور ينبغي أن يعيش الأبناء ويحيون.

وينضاف إلى هذا التأويل فائض دلالي آخر منحه الحذف للآية، ويتجلى في كون لفظة "بيوتكم" تحمل بعدين في الإرسال؛ بعد أول موجه إلى الآباء لرفع الحرج عنهم في الأكل في بيوت أبنائهم، وبعد ثان موجه إلى الأبناء، لجعل بيوتهم مفتوحة في وجوه آبائهم وأمهاتهم، حرصا منهم على إكرامهم وتفعيلا لقيمة البر بهم، والشاهد لدينا في هذا التأويل، هو أنه من غير المنطقي أن نفهم من قوله تعالى "بيوتكم"، أن الحق سبحانه يخاطبنا بشكل مباشر ليقصد البيوت الشخصية فقط، إذ من غير المعقول أن يحس الإنسان بالحرج في بيته. من هنا نستشف أنه تعالى قصد بغياب الدليل اللغوي المحذوف "بيوت أبنائكم"، دعوة إلى تغييب الفروق بين بيوت الأبناء وبيوت آبائهم وأمهاتهم، وإزالة الحواجز والتكاليف وأسباب الحرج على مستوى الواقع والحال، وجعل بيوت الأبناء مفتوحة في وجوه الآباء والأمهات بدون استئذان، وفي كل وقت وحين، لأنه ليس هناك ما يسعد الوالدين في الدنيا أكثر من صلة الرحم مع أبنائهم وأحفادهم. فلا مناص إذن، من خلال تفسير هذا الحذف أن كل قارئ حصيف لهذه الآية، سيعقل منها معنى شريفا وقيمة أسرية سامية، مفادها واجب رعاية الآباء والأمهات والإحسان إليهم وصلة الرحم معهم، أو قل إشراكهم في الأموال والبيوت، وكأنهم هم من يملكها وليس أبناؤهم.

وفي سياق هذا البر نفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أنت ومالك لأبيك"، فلما كانت البيوت جزءا من المال، فهي أيضا ملك للآباء والأمهات، ويجوز لهما مشاركة الولد فيها والأكل منها، لمزيد من تقوية العلاقات وتقارب الألفة والمودة، والتي لا يقويها سوى الاجتماع حول مائدة الطعام، وما يصحب ذلك من تقارب في وجهات النظر، وتواصل ونقاش في مشاكل الحياة وهمومها.

وتحضر في القرآن الكريم آيات أخرى تتبنى الحذف ملمحا أسلوبيا، للإعلاء من قيمة البر بالوالدين، والحث على تقوية أواصر المودة معهما. ومن نماذج ذلك عبارة نجدها تذكر في مواقف تواصلية متعددة من آيات الذكر الحكيم، وهي قوله تعالى: "يا أبت".

إذ نجدها تتكرر على لسان إبراهيم (عليه السلام) أربع مرات في حواره مع أبيه، وذلك في قوله تعالى:" إذ قال لأبيه **يا أَبت** لم تعبدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يغني عنكَ شيئا[42] **يا أَبت** إني قدْ جاءَني من العلمِ ما لم ياتِك فاتَّبِعني أَهْدِك صِراطا سَوِيّاً[43] **يا أبت** لا تعبدِ الشيطانَ إنَّ الشيطان كا(سورة مريم، آيات:42/43/44/45)ن للرحمان عَصيّاً[44] **يا أبت** إني أخافُ أن يمسَّك عذابٌ من الرحمان فتكونَ للشيطانِ وليّاً[45]". (سورة مريم، آيات:42/43/44/45).

كما نجدها في آية واحدة على لسان إسماعيل (عليه السلام) في قوله تعالى:" فلما بلغَ مَعهُ السَّعيَ قالَ يا بُنيّ إنّي أرى في المنامِ أنّيَ أَذْبَحُكَ فانْظُرْ ماذا ترى قال **يَا أَبَتِ** افعلْ ما تومرُ ستَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ من الصَّابِرينَ". (سورة الصافات، آية 102) ونجد ذكرها كذلك على لسان يوسف (عليه السلام) مرتين، وذلك في قوله تعالى: " إذْ قالَ يوسُفُ لأبيهِ **يا أَبت** إنّي رأيْتُ أحدَ عشَرَ كوكباً والشَّمسَ والقَمرَ رأَيْتُهم لي ساجِدين". (سورة يوسف، آية 4).

وفي قوله كذلك:" ورفَعَ أَبويْهِ علَى العَرشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدا وقالَ **يَا أَبَتِ** هذا تاويلُ رؤْيايَ مِنْ قبْلُ قدْ جَعلَها رَبّي حقّاً وقَد أَحْسنَ بِي إذ أَخرجَني مِنَ السِّجنِ وجَاء بِكم مِن البَدْوِ منْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بيني وَبينَ إِخوَتي إنَّ رَبّي لطِيفٌ لِمَا يشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَليمُ الحَكِيمُ". (سورة يوسف آية 100). كما نجده في آية على لسان ابنة شعيب، وذلك في قوله تعالى: " قالت إِحْداهُما **يا أَبَتِ** استاجِرْهُ إنَّ خيرَ من استاجَرْتَ القوِيُّ الأَمينُ". (سورة القصص. آية 26).

يظهر الحذف بارزا في هذه الآيات في أسلوب النداء "يا أبت"، إذ الأصل أن يكون النداء بصيغة "يا أبي". فلماذا عدل القرآن عن التعبير بهذه الصيغة وفضل الصيغة الأخرى؟ وهل قدمت صيغة "يا أبت" إضافة دلالية للآية، أم السبب هو امتناع الجمع بين حرفين زائدين (التاء والياء) فأثبت أحدهما في النداء؟

الملاحظ أن تفسير حذف ياء المتكلم في المنادى "أبي"، وتعويضها بتاء التأنيث المكسورة لتصبح "أبتِ"، أمر جائز عند النحاة (المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي. الجزء الثاني. ص 312)، ولكن هذا العدول عن الصيغة المعيارية في النداء "يا أبي" له دلالات لا بد من تفسيرها. ولا غرو، أن اعتماد صيغة النداء "يا أبي" المألوفة في نداء أحدنا لأبيه، لا يحمل في طياته أي إضافات معنوية سوى النداء المباشر والعادي، الذي ينتظر الاستجابة والتلبية من جهة، ويخلو من العواطف والأحاسيس إزاء المرسل إليه من جهة أخرى. إلا أن اعتماد الآيات المذكورة آنفا على صيغة النداء "يا أبتِ"، منحها فيضا من المعاني، وكثيرا من الإضافات الدلالية. ولعل القارئ الحصيف لا يعدم هذه الإضافات في حوار إبراهيم مع أبيه، إذ إننا نلمس في صيغة " يا أبتِ" تواضعا وتوددا للأب، تكرسهما كسرة التاء التي ترسم على الشفتين وضعا يشبه وضع التبسم (جاء في كتاب المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها عن الكسرة: " إن الشفتين تتراجعان معها إلى الخلف في وضع يشبه وضع التبسم." الجزء الأول، ص 35)، مما يليق بأخلاق نبي كريم، ويعطي الأنموذج الأمثل للأبناء في كيفية حوارهم مع الوالدين. فصيغة " يا أبتِ" في نداء إبراهيم، تنوء بالعطف والحنان، وتجسد قيم البر بالوالدين، لما فيها من نبرة تدل على إشفاق الابن على أبيه، وخوفه عليه من خطيئة عبادة الأصنام، ومن ولاية الشيطان، ومن عذاب من الرحمان.

والتأويل نفسه ينطبق على جواب إسماعيل لأبيه إبراهيم، إذ إن صيغة النداء في قوله "يا أبتِ افعل ما تومر"، "جواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد" (قصص الأنبياء من القرآن والأثر، لابن كثير. ص 139)، وابتداءُ هذا الجواب بصيغة النداء" يا أبتِ" جعله مثقلا بالعاطفة، وطافحا بالخضوع والانصياع، رغم ما يستدعيه المقام في هذا الموقف من تعنت الابن ورفضه لطلب الأب، نظرا لصعوبته ووقعه وما ينجم عليه من إنهاء لحياته. وبنفس العاطفة المليئة بالحبور والتودد، ينادي يوسف أباه "يا أبتِ"، ببهجة وفرح طفولي ليقص عليه رؤياه، فيجيبه يعقوب بحنان أبوي عارم بقوله:" يا بُني"، ليجسد بدوره لأسلوب تربوي غاية في الروعة. وبهذا أمكن القول إن صيغتي النداء المتبادلتين بين يوسف وأبيه، رسمتا محجة ربانية في قيمة الحب التي ينبغي أن تكون متبادلة بين الأب وابنه، والتي قد تصل درجتها بأن يخبر الابن أباه بكل ما يحدث حتى في منامه، وذلك قصد تلقي التوجيهات في حينها، وتثبيت القيم والمبادئ. وينسجم نداء ابنة شعيب" يا أبتِ استأجره"، مع تأويل الآيات السالفة الذكر، لما يحمله هذا النداء من رحمة وشفقة على الأب، ودفع له بحنان للاستجابة لطلبها.

من خلال ما تقدم تحليله من نماذج النداء، يبدو جليا أن صيغة "يا أبت" التي حُذفت منها الياء، وجيء عِوضا عنها بحرف طارئ هو التاء، قد وهبت قيمة الحب والحنان الواجب توفرها في علاقة الأبناء بآبائهم جمالية كانت إلى النفوس أقرب، لم تكن لتتوفر لو جاء النداء بصيغته العادية، ذلك أن إيقاع العبارة وحركتها الصوتية أسهمتا كثيرا في شحنها بنبرة الحنان والعطف.

المطلب الثاني: التقديم والتأخير:

يعد التقديم والتأخير من آليات التوسع في اللغة، وهو يقوم على أساس تجاوز قواعد النحو المعياري وخرق قواعده في ترتيب بنيات الجمل، وقد يكون لغاية دلالية أو فنية. ولاكتشاف فنية التعبير التي يخلقها التقديم والتأخير، أفرد له علماء اللغة مباحث متنوعة في مصنفاتهم، وقد كان الجرجاني أبرز هؤلاء، حيث خصص فصلا خاصًّا له تنظيراً وتطبيقاً في كتابه " دلائل الإعجاز"، وعنه يقول: إنه " باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسِن، واسعُ التصرفِ، بعيد الغايةِ، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شِعراً يَروقُكَ مَسْمَعُهُ، ويَلْطُفُ لديكَ موقِعُهُ، ثم تَنظُرُ فتجد سببَ أن راقك ولطُفَ عندك، أن قُدِّمَ فيه شيء، وحُوِّلَ اللَّفْظُ عن مكانٍ إلى مكان". (دلائل الإعجاز. الجرجاني ص: 106). وقد سما جون كوهن التقديم والتأخير " بالقلب" (بنية اللغة الشعرية. كوهن. ص: 180)، وأدخله ضمن ما سماه بـ" الانزياح النحوي".

ومن القيم الأسرية المبثوثة في الذكر الحكيم، والتي تعتمد على بنية التقديم والتأخير، قيمة البر بالوالدين والإحسان إليهم، والتي تتمظهر في قوله تعالى: " وبالوالدين إحسانا" (سورة النساء، آية: 36)، والتي نجدها في مواقع متفرقة من سور القرآن الكريم. والظاهر في تفسير هذه الآية، أن الله سبحانه وتعالى يأمر بالإحسان إلى الوالدين، والالتفات إليهما بالرعاية والعناية، لان " الذرية بصفة خاصة أحوج إلى توجيهها للبر بالوالدين، بالجيل المدبر المولي، إذ الأولاد – في الغالب - يتجهون بكينونتهم كلها، وبعواطفهم ومشاعرهم واهتماماتهم إلى الجيل الذي يخلفهم، لا الجيل الذي خَلفَهم! وبينما هم مدفوعون في تيار الحياة إلى الامام، غافلون عن التلفت إلى الوراء، تجيئهم هذه التوجيهات من الرحمان الرحيم، الذي لا يترك والدا ولا مولودا." (في ظلال القرآن. سيد قطب، المجلد الثاني، ص 660).

ولكن لماذا لم يذكر سبحانه هذا التوجيه الرباني بشكل مباشر، معتمدا الترتيب العادي للبنية العميقة للغة العربية؛ فعل – فاعل – جار ومجرور... والمتمثلة في قوله: أحسنوا إلى الوالدين؟ وهل أضاف العدول عن هذه الصياغة المباشرة إضافات لمعنى الآية؟

إن تفسير الآية يبدو من خلال تقديم الجار والمجرور "بالوالدين"، وتأخير المصدر النائب عن فعل الأمر "إحسانا"، مما يعطي الأهمية الكبرى للمقدَّم، أي لمن سيقع عليه الفعل (الوالدين) وينبه إليه، أكثر من التنبيه إلى الفعل ذاته (الإحسان)، وقد جاء هذا التقديم ليحمل معنى الأمر المؤكد، لأنه جاء مباشرة بعد الأمر المؤكد بعبادة الله، والذي جسده قوله سبحانه: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه). كما أن اعتماد المصدر النائب عن فعل الأمر بدل فعل الأمر نفسه، منح قيمة الإحسان للوالدين عمقا دلاليا، يتجلى في أننا نعقل من المصدر إمعانا في الفعل وتأكيدا عليه، فلفظة "إحسانا" يمكن أن تفكك إلى جملة "أحسنوا إحسانا"، مما يعطي للمصدر دلالة التوكيد والحث على القيام بالفعل.

وهكذا انسجم المصدر (إحسانا) مع موقعه المتأخر في الآية، فكان له معنى التأكيد، كما انسجم الجار والمجرور (بالوالدين) مع رتبته في صدر الآية، فكان له معنى التقديم لأجل العناية والانتباه.

وفي هذا السياق، يجب الإشارة إلى أن تقدم الإحسان إلى الوالدين في هذه الآية بعد عبادة الله على كل الحقوق، للتنبيه أن " حقهما أوكد من غيرهما وبرهما مقدم على ما سواهما، فهما سبب وجود الولد، كما أنهما سبب التربية، وغير الوالدين قد يكون سبب التربية فقط، فلا إنعام بعد إنعام الله تعالى أعظم من إنعام الوالدين، ومنها أن إنعام الله تعالى من

حيث إنهما لا يطلبان لذلك ثناءً ولا ثوابا." (دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم. دراسة تحليلية، د. منير محمود المسيري. ص 211.)

من خلال هذا التحليل، يتضح أن أسلوب التقديم والتأخير شكل رافدا بنيويا في الآية، أسهم في تعميق قيمة البر بالوالدين، في أبهى حلة أسلوبية، وبأقل كلفة لغوية. ومقابل قيمة الإحسان للوالدين، تحضر في القرآن قيمة الإحسان إلى الأبناء، ومن سبل هذا الإحسان النهي عن قتلهم من لدن الآباء، فالحياة منحة إلهية لا يحق لأحد أن يسلبها من الآخر، لا سيما إذا كان هذا الشخص أبا مكلفا برعاية الأبناء وليس قتلهم.

وتتمظهر هذه القيمة في آيتين من القرآن، تعتمدان تبادل المواقع في الجمل سبيلا للإفهام، ومنهجا للتوضيح. الآية الأولى يقول فيها تعالى: " ولا تقْتُلوا أولادَكم خَشيَةَ إملاقٍ نحنُ نَرزقُهم وإيَّاكمُ إنَّ قتلهمْ كان خِطئاً كبيرا" (سورة الإسراء، آية 31)، اما في الآية الثانية فإنه يقول: " ولا تقتلوا أولادَكُمُ مِنْ إملاقٍ نحن نرْزُقُكُم وإياهُمْ." (سورة الأنعام، آية 152).

تقوم بنية التقديم والتأخير في هاتين الآيتين بدور حاسم في فهم دلالاتهما، ففي الآية الأولى "نحن نرزقهم وإياكم"، قدم سبحانه رزق الأبناء على الآباء، بسبب خوفهم من فقر قد يقع في المستقبل (خشية إملاق) نتيجة تفكيرهم في مشقة الإنفاق على الأبناء (في ظلال القرآن، الجزء الرابع، ص 2223)، ولذلك فإن تقديم ضمير الغائب (نرزقهم) على ضمير المخاطب (نرزقكم)، كان لأجل العناية والاهتمام به، ولأجل إخباره تعالى الآباء بضمانه وتكفله برزق الأبناء. أما في الآية الثانية " نحن نرزقكم وإياهم"، ففيها دعوة للكف عن قتل الأبناء بحجة فقر واقع في الحاضر، وبسبب قلة ذات اليد، لأن الله رازق الآباء قبل الأبناء. ودليل ذلك هو توظيف حرف الجر "من" الذي أُلْصِقَ بلفظ "إملاق" فأعطاه معنى العلة الواقعة والسبب المباشر في قتل الأبناء، ولهذا قدم سبحانه الآباء في قوله: "نرزقكم" لرفع الضيم عنهم، وتفنيد حجتهم في قتل الأبناء.

مما تقدم تحليله، يتضح أن التقديم والتأخير في ألفاظ هذه الآيات، قد أسهم بشكل ملحوظ في الوقوف على الدلالات الخفية لترتيب الألفاظ في القرآن الكريم، لا سيما في الآيات التي تروم تثبيت قيم أسرية خاصة، ليست سوى قيم مجتمعية عامة غايتها صلاح الفرد والمجتمع.

المطلب الثالث: حروف العطف:

تتعدد حروف العطف في اللغة العربية، كما تتعدد وظائفها في الجمل، ودراسة دلالاتها في القرآن الكريم، يجعلنا نقف على لطائف لا تعد ولا تحصى من الإعجاز اللغوي للذكر الحكيم، لا نجد له مثيلا حتى في كلام الفحول البُزَّل، أو أصحاب الطبع والصنعة من كبار شعراء الجاهلية والإسلام.

وسنقتصر في هذا السياق، على توضيح دلالة حرف العطف "الفاء"، وأثره في إرساء قيمة أسرية لا مندوحة عنها في كل بيت من بيوت المسلمين؛ ولا جنة إلا بالحرص عليها؛ إنها قيمة البر بالوالدين. وتتجلى هذه القيمة بتوظيف حرف العطف الفاء في قوله تعالى حكاية عن يوسف (عليه السلام): " فلما دخلوا على يوسفَ آوى إِليهِ أَبَويهِ وقالَ ادخلوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ آمنينَ". (سورة يوسف، آية 99).

من المعلوم أن وضع الألفاظ والحروف في مواضع مخصوصة في القرآن الكريم، يفيد دلالات غير تلك التي قد تكتسبها تلك الحروف أو الألفاظ في مواقع أخرى، ولعل هذه الآية تبين ذلك بشكل واضح وصريح، فحرف العطف " الفاء" الذي يتصدر الجملة، يؤدي دورا معنويا لا يؤديه حرف العطف "الواو" مثلا، رغم أن هذا الأخير أشهر حروف العطف في الاستعمال، وأكثرها توظيفا في اللغة العربية عامة، والقرآن خاصة.

فلماذا إذن جيء في هذه الآية بالفاء، وعُدل بها عن الواو، رغم أن السياق الذي سبق الآية قيد التحليل وظف واو العطف في الاستئناف دون الفاء، وذلك في قوله تعالى: "ولما فصَلتِ العيرُ قال أبوهُمُ إنّي لأَجِدُ ريحَ يوسُفَ لولا أنْ تُفَنِّدونِ." (سورة يوسف، آية 94).

إن سياق تكريس قيمة البر بالوالدين، هو الذي فرض توظيف حرف العطف الفاء في الآية السابقة، لأن فاء العطف فيها تفيد الاستئناف مع دلالات الترتيب والتعقيب، (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، الإمام بن هشام الأنصاري، الجزء الأول، ص 184/183. وهناك معاني أخرى لحروف الجر مثل الترتيب والسببية). ومثال ذلك أننا عندما نقول: "دخل أحمد ففاطمة"، فإن المعنى هو دخل أحمد وجاءت بعده فاطمة مباشرة بدون فارق زمني، لأن الفاء تدل على العلاقة الترتيبية والزمنية بين الفعلين " دخل ودخلت". فتصدير الجملة الأولى بالفاء، " فلما دخلوا على يوسف"، جعل الجملة الثانية "آوى إليه أبويه"، ترتبط بها وتعقبها مباشرة دون حاجز زمني، وبدون مهلة ولا تراخٍ. فتوظيف "الفاء" مع الأداة "لما"، يلغي أي حاجز زمني بين بين الفعل "دخل"، والفعل "آوى"، يجعلنا نستنبط منه شوق يوسف لأبويه من جهة، بعد أعوام من البعد واليأس وانتظارهما على أحر من الجمر، كما نستنبط منه من جهة أخرى، بِرَّه بهما، والذي جَسَّدَه إسراعه في إكرام وفادتهما بمجرد دخولهما عليه. فعدول الآية إلى توظيف "الفاء" عوض أي حرف عطف آخر، كان لغاية استغلال الطاقة الدلالية التي يحملها هذا الحرف دون غيره، لتوضيح دلالة السرعة في رعاية الوالدين والإحسان إليهما دون تباطؤ أو تلكؤ. ومثال ذلك قوله تعالى في نفس السورة: " فلمَّا جهَّزهم بجَهازِهم جعلَ السِّقاية في رحلِ أخيه ثُمَّ أَذَّن مؤَذِّنٌ أيَّتها العيرُ إنكم لسارقونَ." (سورة يوسف، آية: 70) فقد جاءت "الفاء" في هذه الآية مع الأداة "لما" لعدم وجود الفارق الزمني بين الفعل " جهز"، والفعل "جعل"، لأن تصوير المشهد أثناء تجهيز رحال إخوة يوسف سيتلوه مباشرة ويعقبه وضع صواع الملك في رحل أخ يوسف، أي إبان ذلك وليس بعده.

إن هذا التحليل هو غيض من فيض بلاغة حروف العطف في القرآن الكريم، وتعقب دلالات تلك الحروف، سيفضي لا محالة بالقارئ إلى استقصاء علم وفير وأجر كبير.

المبحث الثالث

الانزياح الإيقاعي؛ " نظم آيات القيم الأسرية في القرآن بين الإمتاع والإقناع"

الإيقاع هو التعاقب المطرد في الزمن لظواهر متشابهة (الشكلانية الروسية، فيكتور إيرليخ. ص 72)، والغاية من وراء هذا التعاقب هي إحداث الانسجام، والإسهام " في خلق الانطباع الجمالي" (نصوص الشكلانيين الروس. نظرية المنهج الشكلي. إيخنباوم. ص:39). وقد تنبه النقاد القدماء إلى دور الإيقاع في خلق الانسجام وبعث الإحساس بالجمال، فعابوا كل من يهدم هذا الانسجام ويكسِّرُه، وآثروا في الكلام ما "لا تتباين ألفاظه ولا تتنافر أجزاؤه" (البيان والتبيين. الجاحظ. ج1. ص:67). كما أنهم تجاوزوا الحديث عن انسجام الألفاظ والجمل، إلى الحديث عن انسجام الحروف وتآلفها، وفي هذا السياق يقول الجاحظ: " فأما في اقتران الحروف، فإن الجيم لا تقارِن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تُقارِن الظَاءَ ولا السينَ ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير". (البيان والتبيين. الجاحظ. ج1. ص 69).

لقد أدركوا إذن أن " حسن الإفهام" (البيان والتبيين. الجاحظ. ج1. ص 114)، لا يكون بالمعاني فحسب، وإنما " بتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم" (البيان والتبيين. الجاحظ. ج1. ص 114).

ويعد الإيقاع وسيلة فنية تنزاح بها اللغة الفنية عن المعيارية في التعبير والسطحية في الإبلاغ، إذ من خلاله تتساوى قيمة الألفاظ والمعاني في النص، فيعملان جنباً إلى جنب لإضفاء اسم البلاغة على الكلام، يقول الجاحظ في هذا السياق: " لا يكون الكلامُ يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظَه، ولفظُه معناه" (المصدر نفسه. ج1. ص 115).

من خلال ما تقدم، نخلص أن الإيقاع طاقة فعالة في كل فنون القول، تنهض " بوظيفة مزدوجة أولاها وصل مكونات النص بعضها ببعض، وثانيتها التأثير في المتلقي، وأما وسائلها فهي كل ما يُوفِّر الانسجام والتلاؤم" (مفهوم الأدبية. في التراث النقدي إلى نهاية القرن 4 هـ. توفيق الزيدي. ص139).

وعند التنقيب عن مظاهر الإيقاع في القرآن الكريم، التي ترفد معها قيما أسرية خالدة تنور المجتمع وتهديه سبل الرشاد، نعثر عليها ونعجب بصيغها في التعبير، وسنقتصر في هذا السياق على مظاهر بارزة منها للتوضيح والتمثيل.

المطلب الأول: التكرار:

التكرار هو "الترديد" (معجم مقاييس اللغة. ابن فارس زج5. ص 126) عند ابن فارس، وعند ابن الأثير " هو دلالة اللفظ على المعنى مردَّداً" (المثل السائر. ابن الأثير القسم 3. ص:3)، ويرى ابن أبي الإصبع أن الترديد " يكون بالأسماء المفردة، والجمل المؤتلفة والحروف" (تحرير التحبير. ابن أبي الإصبع. ص 254) ، إلا أن هناك فارقاً دقيقاً بينه وبين التكرار، " فاللفظة التي تُكَرَّرُ في التَّكرار لا تفيد معنى زائداً، بل الأولى هي التي تبين للثانية وبالعكس، واللفظة التي تتردَّد تفيد معنى غير معنى الأولى منهما، واشتقاقُهما مُشعِرٌ بذلك، لأن الرَّاد من وجهٍ لا يبلغ إلا الموضع الذي أراده، والكار هو الذي انتهى إلى الموضع المراد وكرَّ راجعًا". (تحرير التحبير. ابن أبي الإصبع. ص254 – 255).

ويعتمد القرآن الكريم في كثير من آياته على التكرار، إلا أننا في هذا البحث سنسلط الضوء على عبارة مخصوصة، تتبنى التكرار ملمحا أسلوبيا لها، بموازاة حملها لمعاني القيم الأسرية التي نص عليها الحق سبحانه وتعالى؛ إنها عبارة " وبالوالدين إحسانا".

تردد هذا الأمر الإلهي في القرآن مرات عديدة، إذ جاء في سورة البقرة، آية 82: "وإذ أخَذْنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تعبُدون إلا اللهَ وبالوالدين إحسانا"، وفي سورة النساء، آية 36: " واعبدوا الله ولا تشركوا به ِشيْئا وبالوالدينِ إحساناً "، وفي سورة الأنعام، آية 152: "قلْ تعالوا أتْلُ ما حَرَّم ربُّكم عليكمُ ألا تُشرِكوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً"، وفي سورة الإسراء، آية 23: " وقضى رَبُّك ألا تعبدوا إلاَّ إياهُ وبالوالِدين إحساناً"، وفي سورة الأحقاف، آية 14، يأتي نفس الأمر الإلهي ولكن بصيغة مشابهة للصياغات السابقة في قوله تعالى "ووَصَّينا الإنسانَ بوالديهِ حُسناً"، كما يأتي نفس الأمر في سورة لقمان، آية 13، مع حذف لفظ(حسنا) الذي يسهل على قارئ القرآن تقديره، بفعل سلطة الآيات السابقة، واستقرارها في الأذهان، ويظهر ذلك في قوله تعالى:" وَوصينا الإنسانَ بوالديه".

لا مناص، أن إيراد وصية الإحسان إلى الوالدين والبر بهما، بهذا الشكل المطرد والمتكرر لعبارة موحدة في مواقع مختلفة من القرآن، سيجعلنا نعقل من وراء ذلك، إصرارا وتأكيدا من الحق سبحانه على تنفيذ تلك الوصية، وعدم جعلها وراء الأذن وتحت القدم، بل جعلها نبراسا يهتدي به كل مسلم، ومحجة يقتفيها كل ابن في طريقة تعامله مع أبيه وأمه.

ولإيقاع التكرار في هذه الآيات وجهان متوازيان، يهدفان إلى تحقيق الغاية نفسها؛ فأما الوجه الأول فوجه صوتي نغمي، يروم استمالة الأذن، من خلال ترديد حروف بعينها، وتكرار ألفاظ بنفسها، حتى تحدِث في النفس هِزَّةً ونشوة صوتية، لا تحدثها لو غيرت مواقعها، او تنافرت حروفها. وأما الوجه الثاني فمعنوي، يراكم دلالات البر والإحسان بالوالدين على امتداد السور والآيات المتفرقة في القرآن، ويزيد من أُلفة المسلم لتلك الدلات ويستميله نحوها، حتى يعطيه الانطباع، بأن تكرارها ليس من باب الترف اللفظي والإيقاعي، بل إنه من باب التقرير المعنوي والتأكيد الدلالي. وهكذا يكون تكرار عبارة

"بالوالدين إحسانا"، قد حقق جمالية في تثبيت قيمة بر الوالدين، ونبه إليها بفعل التأثير الصوتي لكلماتها المتوازية صرفيا، كما حقق عمقا في الإشارة إلى هذه القيمة، وتكريسا لها عبر نثرها في آيات متفرقة من الذكر الحكيم، وربطها في كل ذلك بالحث على عبادة الله وعدم الإشراك به. لقد أسهم هذا العدول الإيقاعي عبر آلية التكرار، في تجسيد أمر رباني غايته صناعة الإنسان الكامل، وبناء الأسرة المتماسكة، وإقامة المجتمع الفاضل.

المطلب الثاني: محاكاة إيقاع اللفظ لمعناه:

يقصد بمحاكاة إيقاع اللفظ لمعناه أن تنسجم موسيقى الألفاظ مع حروفها ومعانيها، وقد عرف ذلك عند العرب باسم "حكاية الصوت للمعنى" (البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د. تمام حسان. ص 319)، وأمثلته كثيرة في العربية، فصوت المياه (خرير) لا بد أن يعقل منه السامع تداخلا بين موسيقى اللفظ، وحروف الاسم ومعناه على مستوى الواقع، ونفس الأمر ينطبق على كثير من الأصوات؛ كالنحيب، والقهقهة، والفحيح، والصهيل، والنهيق، والهديل... وغيرها من المسميات.

ومن آيات القرآن الكريم التي تعتمد على هذا التداخل بين إيقاع اللفظ ومعناه، قوله تعالى: "فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهما وقل لهما قولا كريماً." (سورة الإسراء، آية 23).

تحمل هذه الآية قيمة أسرية عظيمة، تكررت في مواقع عديدة من القرآن الكريم وبأساليب مختلفة، إلا أنها هنا تستدعي لتثبيتها آليتين، الأولى معنوية، نستشفها من النهي الصريح الموجه إلى الأبناء، والذي مفاده عدم إظهار أية جفوة للأبوين، والنهي عن إسماعهما" قولا سيئا حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ" (تفسير القرآن العظيم، ابن كثير. الجزء الخامس. ص 64). فرعايتهما لا تقتصر على الأمور المادية فحسب، بل تهم كذلك القول الحسن، والكلمة الطيبة، وتجنب الغلظة والقسوة " وألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضيق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب." (في ظلال القرآن. سيد قطب. المجلد الرابع، ص 2221).

ولا جرم هنا من القول إن لفظة " أف"، التي اعتبرها النحاة اسم فعل مضارع بمعنى "أتضجر"، (المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها. الأنطاكي. الجزء الثالث، ص: 93) تحضر في هذه الآية لأجل القياس؛ إذ المنع من التأفيف يعني قياسا منع كل أشكال سوء الأدب معهما، فحَضْرُ الأدنى يستدعي بالضرورة حضْرَ الأقصى.

أما الآلية الثانية فإنها إيقاعية، تستنفر كل الطاقات الصوتية لدعم الدلالات المعنوية للفظة "أف"، لتعبر عن السلوك المنهي عنه اتجاه الوالدين. والملاحظ في سياق التحليل الإيقاعي لدلالة لفظة "أف"، أن تمثلها على مستوى الأداء (أوووففف)، يبين أن دلالتها تُقتبس من ذات اللفظ، فبينهما صلة قرابة، وهي قطعة منه، وأصواتها تحاكي تماما حروفها ومعانيها على مستوى المعجم، مما يمنحها دلالات تعمق مشهد الضجر المنهي عنه، وحركات رد الفعل عند الابن العاق لوالديه. إن انزياح الذكر الحكيم عن ذكر لفظ "أَضْجَرُ" أو "ضَجِرْتُ"، للتعبير عن واقع الحال عندما يضيق الابن ذرعا بوالديه، وتعويض ذلك بلفظة " أُف"، أعطى لموقف الضجر عمقا دلاليا، بحيث جعل الموقف يتناسب مع صوت الضجر ويحاكيه في موسيقاه، بطريقة تناسب ما يعرف في السينما بالموسيقى التصويرية، وبشكل يمنح للفظ فصاحة، ويهب للمعنى أريحية وبلاغة.

نستنتج مما تقدم تحليله، أن عدول القرآن بلفظة "أف" عن الاستعمال العادي لمضمونها "أتضجر"، أسهم بشكل جلي في توضيح قيمة بر الوالدين، وإنجاح إفهامها إلى المتلقي بالصوت والصورة.

المطلب الثالث: إيقاع الفواصل:

تعتبر الفاصلة في القرآن الكريم من عناصر الإيقاع الأساسية، والتي تعتبر منها صوتيا وأسلوبيا، يتكرر ليحدث دلالات ترتبط بالموضوعات التي جاءت لتؤكد عليها، وتثيرها في السورة. والفاصلة القرآنية في أبسط تعريفاتها، " هي حروف

متشاكلة في المقاطع، ويقع بها إفهام المعاني، وفيها بلاغة، والأسجاع عيب، لأن السجع يتبعه المعنى، والفواصل تابع للمعاني." (تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرح السيد صقر. ص 23)، فاستحضار الفواصل في القرآن إذن لا تكون لأجل الغرض الإيقاعي فحسب، بل يتم استحضارها للغايات المعنوية أيضا، وما يفرضه السياق، ولذلك فإنها تعد إحدى مظاهر الإعجاز.

ومن آيات الذكر الحكيم التي تقوم فيها الفواصل بدور حاسم في تأكيد المعنى، قوله تعالى: "قال ربِّ اشرحْ لي صَدري [24] ويَسرْ لي أمري[25] واحلل عقدة من لساني[26] يفقهوا قولي[27] وجعل لي وزيرا من أهلي[28] هارون أخي[29] اِشْدُدْ بهِ أَزْري[30] وأَشرِكْهُ في أمري[31] كيْ نُسَبحك كثيراً[32] ونَذْكُرَك كثيرا[33] إنَّك كنت بنا بصيراً[34]". (سورة طه، من الآية 24 إلى الآية 34).

تنوء هذه الآيات بحملٍ إيقاعيٍّ بارز، تنهض الفواصل بالقسط الأكبر منه، والقرآن بهذه الطريقة يخلق إيقاعا موسيقيا تأنس له النفس، وتطرب له الأذن، وهو بهذا أيضا يعدل عن الأسلوب اللغوي المباشر، ويلجأ إلى أسلوبي جمالي يرتكز على الفواصل التي تأتي "في نهاية الآية لتحقق للنص جانبا جماليا لا يخطئه الذوق السليم، لأننا مهما يكن من شيء نحس أنها تضفي على النص قيمة صوتية منتظمة" (البيان في روائع القرآن. تمام حسان. ص 279).

فما الذي أضفاه إذن هذا العدول الإيقاعي إلى معنى الآية؟ وكيف أسهم في تثبيت القيم الأسرية؟

يبدو حرف الياء في فواصل الآيات (32/31/30/29/28/27/26/25/24) أكثر ظهورا من غيره من الحروف، وهو ما يجعله بمثابة القفل الذي يضبط إيقاع تلك الآيات، وحضور حرف الياء على امتداد هذه الآيات منحها نفسا طويلا في الإخبار عن معنى واحد؛ هو معنى الدعاء، إذ إن موسى عليه السلام خلال هذه الآيات يحاور الله سبحانه وتعالى، ويطلب منه ان يشد أزره بأخيه، لكي يكون له معينا في الدعوة، فليس هناك شخص أفضل من الأخ في هذه المواقف، وهو بهذا يعمل على التنبيه إلى قيمة الأخوة والتعاون التي ينبغي أن تسود بين الأخ وأخيه. وقد كان للفاصلة دور حاسم إلى جانب الجناس غير التام (أزري / امري) في التنبيه لهذه القيمة وتأكيد مقوماتها، فلو قيل مثلا: " اجعل لي من أهلي وزيرا. أخي هارون. أشدد به أزري. وفي أمري أشركه"، لَحافظ القرآن على نفس المعنى، ولكنه بالمقابل سيكسر إيقاع الألفاظ، وسيذيب تلك الأريحية التي وهبتها الفاصلة للمعنى ومنحتها إياه، وستضيع حلاوة الكلام وطُلاوته.

الثابت إذن، أن الفاصلة منحت لهذه الآيات دلالات لا تحصل بدونها، ولا يكون الإعجاز إلا بها " وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس... ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذي يُطمع فيه أو في أكثره" (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي. ص: 150).

ولا تخضع الفواصل في القرآن، لما تخضع له القوافي في الشعر، فهي حرة تتبع المعنى وتؤكده، عكس الشعر الذي تتبع فيه المعاني لحروف القوافي، ودليل ذلك في هذه الآيات، أن فاصلة الياء – كما فسرت من قبل- صاحبت معنى طلب موسى شد أزره بأخيه، بينما عندما تحول المعنى إلى ذكر سبب آخر في طلب دعمه بأخيه" كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا"، جيء في هذه الآيات في إلماعةٍ بهية بفاصلة الراء، ليبن الحق سبحانه، أن تحول الإيقاع المعنوي سيصاحبه تحول إيقاعي يروح عن النفس، ويثير انتباه العقل إلى هذا التحول المعنوي الموازي للتحول الإيقاعي.

وما يزيد من بهاء هذه الآيات ورونقها أيضا، أن الانزياح الإيقاعي فيها يعضده عدول دلالي، يرفد بمعيته المعاني المراد تبليغها إلى القارئ. فموسى في مخاطبته لربه في قوله: (اِشرح – يسر – احلل – اجعل- اِشدد- أشركه) يتبنى أفعال الأمر التي عدلت عن دلالاتها الحقيقية، إلى دلالات مجازية تفيد التضرع والدعاء، لأن المرسل (موسى)، أقل شأنا من المرسل إليه (الله)، فلا يصح أن يأمره، بل السليم دلالة أن يدعوه ويتضرع إليه.

وبذلك نخلص إلى أن ايقاع الفواصل في هذه الآيات، استطاع أن يبلغ بدقة متناهية معاني قيم الأخوة وما تفرضه من تآزر وتعاون، وذلك بأسلوب جمالي فيه الكثير من الرونق والحسن، لم يكن ممكنا الاتصاف بهما في حالة تبني الأسلوب المباشر الخالي من الإيقاع.

خاتمة:

من خلال ما تقدم تفسيره وتحليله لمظاهر الانزياح في القرآن الكريم، يمكننا تقديم الخلاصات الآتية:

- إن اعتماد المنهج الأسلوبي واللغوي للكشف عن القيم الأسرية في القرآن الكريم، أسهم بشكل كبير في الوقوف على قيمة اللغة ودورها الحاسم في النظم القرآني.
- إن تقسيم محاور هذا البحث إلى أنواع مختلفة من الانزياح الأسلوبي، هو ضرورة منهجية فحسب، لأن الكثير من القيم الأسرية في القرآن قد نجد فيها تداخلا في مختلف أنواع الانزياح.
- إن الانزياحات الأسلوبية في القرآن الكريم، لها أثر بالغ لا يمكن إغفاله في توجيه دلالات آيات التربية الأسرية وتعميقها.
- يبدو جليا في الانزياح الدلالي أن اللغة القرآنية تنأى عن الأسلوب المباشر والتقريري في تقديم المعاني، وتوثر الأسلوب البياني في طرح قيم النصيحة والحب والرحمة، لما لهذا الأسلوب من قدرة على الإبلاغ والإمتاع.
- إن تبني القرآن الكريم للعدول التركيبي منح اللغة القرآنية قدرة على المزاوجة بين الوظيفة التواصلية، والوظيفة الإمتاعية. وقد شكل الحذف، والتقديم والتأخير، وأساليب العطف والنداء، مظاهر أساسية للعدول التركيبي، وملامح أسلوبية أضافت للقيم الأسرية في القرآن، زيادات معنوية بقدر الزيادات البنيوية. كما أن انزياح لغة القرآن عن الخطاب المباشر، وتبنيها لإيقاع صوتي، منحها الكثير من الرونق والبهاء، وزادها إعجازا صوتيا فوق إعجازها المعنوي.

بيانات الإفصاح:

- **الموافقة الأخلاقية والموافقة على المشاركة:** تم الاتفاق على المشاركة في البحث وفقاً للإرشادات الخاصة بالمجلة.
- **توافر البيانات والمواد:** كافة البيانات والمواد متاحة عند الطلب.
- **مساهمة المؤلفين:** يتحمل المؤلفين مسؤولية كافة محتويات البحث والتحليل والمنهجية والمراجعة الكاملة.
- **تضارب المصالح:** لا يوجد تضارب في المصالح لأي طرف من خلال تصميم البحث وتقديمه وتقييمه.
- **التمويل:** لا يوجد أي تمويل مخصص لهذا البحث.
- **شكروتقدير:** الشكر الجزيل لأكاديمية التطوير العلمي ومجلة المؤتمرات العلمية (JSC) على الدعم والإرشادات (https://sdasmart.org/jsconf/)

قائمة المراجع:

- القرآن الكريم. برواية ورش. المكتبة العلمية الإسلامية. بيروت. لبنان.
- الإتقان في علو م القرآن. للحافظ أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق مركز الدراسات القرآنية، .مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. المملكة العربية السعودية.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مصطفى صادق الرافعي. دار الكتاب العربي . بيروت1425 هـ/2005 م. الطبعة الثامنة.
- إعجاز القرآن، الباقلاني. تحقيق: محمد بن عويضة. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 1417 هـ / 1996 م.
- بنية اللغة الشعرية. جان كوهن. ترجمة: محمد الوالي ومحمد العمري. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء . المغرب. الطبعة الأولى 1986.
- البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني. د. تمام حسان. عالم الكتب. القاهرة، 1413 هـ - 1993 م. الطبعة الأولى.
- البيان والتبيين. الجاحظ. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. [د. ت] .
- تأويل مشكل القرآن. ابن قتيبة. شرح السيد صقر. المكتبة العلمية. بيروت.1981. الطبعة الثالثة.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. ابن أبي الإصبع المصر (585 . 654 هـ) تحقيق: د. حفني محمد شرف. دار التعاون للطبع والنشر. مصر. 1416 هـ / 1995 م.
- تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. تحقيق سامي بن محمد السلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية 1420 هـ- 1999. الجزء الخامس.
- دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم. دراسة تحليلية. د. منير محمود المسيري. مكتبة وهبة. مصر. الطبعة الأولى 1426 هـ - 2005م.
- دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. تحقيق: محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي القاهرة. الطبعة الخامسة. 1424 هـ / 2004 م.
- الشكلانية الروسية. فيكتور إيرليخ. ترجمة: د محمد الوالي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. الطبعة الأولى. 2000.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. تأليف السيد الإمام إمام الأئمة الكرام أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني. دار الكتب العلمية. بيروت .لبنان. [د. ت] .
- في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق. الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون. 1423 هـ.2003م.
- قصص الأنبياء من القرآن والأثر. لأبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي. تحقيق صدقي جميل العطار. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. لبنان. الطبعة الأولى 1425 - 1426هـ . 2005م.

- اللغة المعيارية واللغة الشعرية. موكاروفسكي.تر. ألفت كمال الروبي. مجلة فصول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. أكتوبر .نوفمبر .ديسمبر 1984. المجلد الخامس/ العدد الأول.
- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر. ابن الأثير. تحقيق بدوي طبانة وأحمد الحوفي. دار نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة. الطبعة الثانية.
- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها. محمد الأنطاكي. دار الشروق العربي. بيروت. الطبعة الثالثة.
- معجم مقاييس اللغة. لأبي الحسن أحمد بن فارس زكريا(395هـ). تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1319 هـ/ 1979م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. الإمام بن هشام الأنصاري. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. 1411هـ - 1991م.
- مفتاح العلوم. للسكاكي. حققه وقدم له وفهرسه. د. عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان. الطبعة الأولى. 1420 هـ 2000 م.
- مفهوم الأدبية. في التراث النقدي إلى نهاية القرن 4 هـ . توفيق الزيدي. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. الطبعة الثانية.1987م.
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع. لأبي محمد القاسم السجلماسي. تقديم وتحقيق: علال الغازي. مكتبة المعارف .الرباط. الطبعة الأولى 1401 هـ/ 1980 م.
- نصوص الشكلانيين الروس. نظرية المنهج الشكلي. إيخنباوم. ترجمة: إبراهيم الخطيب. مجلة أقلام. العدد 10. دار النشر المغربية. أكتوبر 1979 م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. المكتبة العصرية. بيروت. [د. ت].